البحث في طبائع الحشرات واكتشاف الطرق لابادتها وعلى الحكومات ان تنفع الناس بما يكتشفهُ العلماء ولكن اكثرها متراخٍ مهمل من هذا القبيل وقد تعرف طريقة التخلص من مرض ولا تبادر الحكومة الى العمل بها الاَّ بعد السنين الطوال . والآن قد انقضى خمس عشرة سنة على معظم الاكتشافات التي سردتها عليكم ولم ينتفع الناس بها في تحسين صحتهم الاَّ نحو عشر النفع الذي كان يجب ان يتنفعوهُ لو اهتموا للامر الاهتمام الواجب

لما كل بحثي في الملاريا سنة ١٨٩٩ اخذت احلم بتطهير المدن الكبيرة في البلدان الحارة من الملاريا وتخلصها من هذا الداء الذي مرَّت القرون وهو ينهك قوى اهلها ويفتك بهم ولكن احلامي لم تتحقق . نعم قد بذلت الهمة في تطهير بعض الاماكن مثل بناما والاسمعيلية وايطاليا وغرب افريقية وبعض اقسام الهند والاملاك الانكليزية في ملقا ولكن كان يمكن القيام باكثر من ذلك لو كنا يقظين ننتهز الفرص ونحرص على القيام بما يطلب منا ولا لوم على العلم اذا لم ننتفع بما يسَّر لنا الانتفاع بهِ . ولا يمكن الانتفاع بما عُرف عن الملاريا في حياة احد من الحضور هنا ولكنا قد رأينا بدأهُ ولعل اولادنا يرون كمالهُ

رأي المانيا في حقيقة الدول

اشرنا في مقتطف دسمبر الماضي الى الكتاب الذي ألَّفهُ جماعة من اساتذة اكسفرد وبيَّنوا فيهِ الاسباب التي حملت انكلترا على خوض غمار هذه الحرب . وقد رأينا ان نلخِّص الآن فصلاً من هذا الكتاب موضوعهُ رأي المانيا الجديد في حقيقة الدول لان رأيها هذا هو العلة الاصلية لنشوب هذه الحرب

قال اولئك الاساتذة ما خلاصتهُ : —

ان الحرب الناشبة الآن بين المانيا وانكلترا انما هي حرب بين مبدأين مختلفين الواحد مصلحة الدولة والثاني سلطة القانون . فان الخلاف بين هذين المبدأين ظهر في تاريخ بلادنا الداخلي اولاً في القرن السابع عشر حينما قام الملوك من آل ستيورت وقالوا ان مصلحة الدولة تقتضي اموراً لا بدَّ لها منها وان ذلك يجعلهم في حلٍّ من سلطة القانون لكي يبيغوها هذه الامور . فقام البارلمنت وانتصر للقانون واوجب على الملوك الخضوع لهُ في كل امر

وهذا الخلاف وقع الآن بين امتين الامة الالمانية والامة الانكليزية الواحدة تدَّعي ان لها ان تنقض قانون اوربا العام لاجل مصلحتها التي هي حفظ كيانها والثانية تقول انهُ لا يجوز

الدولة ان تنقض هذا القانون لاي سبب كان فالاولى تحتقر العهود الدولية التي ارتبطت بها وتقول انها حبر على ورق . والثانية تدافع عنها جهد طاقتها وتقول انهُ لا يجوز انتهاك حرمتها

يدّعي الالمان الآن ان الدولة الالمانية هي الغاية القصوى والمثال الاتم لما يجب ان تكونهُ الدول كلها متبعين في ذلك مذهب استاذهم ترتشكي[1] الذي يعدونهُ اعظم مؤرخ سياسي وطني حتى صارت خطبهُ في السياسة قبلتهم ومرشدهم فقد قال ان الدولة هي غاية ما وصل اليهِ الاجتماع البشري وما من شيء فوقها في تاريخ العالم على الاطلاق . وجعل كل دولة من الدول صورة مستقلة قائمة برأسها (der geschlossene Staat) غير مرتبطة بشيء من الحقوق الدولية وتنفي ما يسمّى بمحقرق الدول المتبادلة . وقال ان على المانيا ان تحذف من قاموسها كل كلمة غريبة وتنفي من اسواقها كل بضاعة اجنبية حتى تصير دولة مستقلة تمام الاستقلال وحينئذٍ يقال انها صارت قوة . وعندهُ ان اهم ما يجب على كل دولة هو حفظ كيانها كما ان اهم ما يجب على الانسان هو تكميل نفسهِ . وحفظ كل دولة لكيانها يستلزم ان تكون قويّة . فعليها ان تهتم بقوتها وتنميتها وهذا اهم ما يطلب منها اديبًا ولا شيء في الضعف السياسي اكره واحقر من الخمول فانهُ ذنب لا يغتفر

وظاهر من ذلك ان ترتشكي كان يعبد القوة و يأمر بعبادتها ولكننا لا ننصفهُ اذا لم نبيّن انهُ اراد بالقوة شيئًا آخر غير مدلولها المادي المجرّد فانهُ قال ان الدولة الالمانية هي وسيلة لترقية الامم بالرقي الالماني ولذلك فقوتها لازمة لها لتقوم بهذا العمل الجليل . وقد انتقد على ميكافلي[2] انهُ عدّ القوة غاية وقال انها وسيلة ولا تستحق المدح الاّ اذا كانت وسيلة للرقي الادبي الاسمى اي الرقي الالماني

وينتج عن هذه الفلسفة امران الواحد سلبي وهو نفي كل ما يُعدُّ حقًّا من حقوق الدول المتبادلة والثاني ايجابي وهو تعظيم القوة الحربية وتمجيدها

وعند ترتشكي ان مصلحة الامة هي العليا ولها يجب ان تخضع كل القوانين الدولية . ولا بدّ لكل دولة من ان تكون ذات سلطة مطلقة حتى تكون قوتها مطلقة والسلطة المطلقة تستلزم ان لا تكون الدولة مقيدة بقيود ولو كانت هذه القيود ممّا سنتهُ هي لنفسها وعندهُ ايضًا ان كل عهد تعهّدت بهِ دولة ما انما يصدق على الحالة التي كانت فيها عند ارتباطها بذلك

---

(١) انظر ترجمتهُ وخلاصة آرائهِ في مقتطف دسمبر الماضي

(٢) هو الكاتب السياسي المشهور الذي بنى آراءهُ السياسية على ان الغاية تبرر الواسطة . انظر ما لخصناهُ من آرائهِ في الصفحة ١٨٨ من المجلد ٤٣ من المقتطف

العهد rebus sic stantibus فلا تستطيع ان ترتبط بعهود للمستقبل والمعاهدات الدولية ليست شروطاً مطلقة بل هي عهود اختيارية تقوم بها الدول ما رأت فائدة في القيام بها . والدولة ليست تحت سلطة القضاء فاذا تعهدت بامر قانوني فهي حرة ان تقوم بتعهدها وان تنقضهُ . والغاية تبرر الواسطة وحفظ الامبراطورية الالمانية هو الغاية السامية التي تحلل نقض كل المعاهدات الدولية اذا اقتضت هذه الغاية نقضها . وانهُ لمن الحماقة ان تقول للدولة عليك بقوانين الآداب وهي جارية في حلبة المباراة مع غيرها من الدول

وقد اقتبس برنهاردي(٢) هذه التعاليم كلها من استاذهِ ترتشكي لان الضباط والجنود كانوا يتزاحمون على استماع خطبهِ في برلين كتلامذة المدارس . ومن رأيهِ انهُ لا يوجد قانون دولي عام وان كل دولة من الدول وصلت هي بنفسها الى المعنى الذي تفهمهُ من كلمة « حق » فلا يستطيع احد ان يقول ان فهم هذه الدولة اصح من فهم تلك وما من دولة تحترم نفسها ثم تنقض فهمها للحق بناء على ان القوانين الدولية تخالفهُ واذا فعلت ذلك تكون قد نقضت اسمى غاية تتوخاها . وعليهِ فالغيرة الوطنية التي تتطلب نفي الكلمات الاجنبية والبضائع الاجنبية تتطلب ايضاً نفي القوانين الدولية كانها شيء اجنبي لا يجوز العمل بهِ

وقد طبّق برنهاردي ذلك على بلجيكا فقال ان المانيا اصبحت في حلٍّ من المعاهدة التي وقّعتها حفظاً لحياد البلجيك لانهُ لما أعلن حيادها لم يخطر على بال احد انها تدّعي الاستيلاء على جانب كبير من اوربية . ويمكن ان يقال ان هذا الاستيلاء الى حيادها . ثم زاد على ذلك قائلاً ان الحياد الدائم مناقض لحقيقة الدولة لانها لا تصير دولة بالفعل الاَّ اذا حاربت غيرها من الدول ومقاد ذلك ان المانيا بخرقها حياد البلجيك قد ساعدتها على البلوغ الى الغاية العظمى التي يجب ان تسعى اليها . لكن المانيا كانت تعترف بحياد البلجيك قبل الحرب بل قد اعترف بهِ وزير الامبراطورية الالمانية في بداءة الحرب اذ قال « ان الضرورات تبيح المحظورات والخطأ الذي ارتكبناهُ بخرقنا حياد البلجيك سنجتهد حتى نصلحهُ حالما نبلغ الغرض الحربي الذي نرمي اليهِ »

والذي يستوقف النظر في ما يقولهُ الالمان من حيث حقيقة الدول هو تمجيدهم للحرب سواء كانت دفاعاً او هجوماً فتجد في فهرس كتاب ترتشكي في السياسة تحت كلمة « الحرب » هذه الفصول : طهارة الحرب . كونها من النواميس الالهية . كونها السياسة بوجه عام . وقد

(٢) جنرال الماني له كتاب مشهور فصّل فيهِ استعداد الدول الاوربية للحرب وقال انهُ لا بدَّ لالمانيا من ان تخوض غمارها قريباً

قال ان لكل دولة من الدول عملين وُجدت للقيام بهما الاول اجراء القوانين والثاني اثارة الحروب . والظاهر ان العمل الثاني هو اهم عملها لان الحرب هي السياسة بوجه عام وانهُ لا يحتمل ان تنتفي الحروب من الدنيا ولا يحسن ابطالها لانها الدواء الوحيد الذي يشفي الامم المريضة فاذا مدَّ السلم رواقهُ وخملت النفوس في ظلاله وانفرد كل امرئ بنفسهِ جاءت الحرب فايقظتهم وجعلتهم يشعرون انهم اعضاء بعضهم لبعض وهنا عظمة الحرب حيث تتلاشى الاثرة الذاتية امام عظمة الدولة . ولا يشعر المرء انهُ عضو في جسم كبير حيّ الاَّ في زمن الحرب فالغرض الذي ترمي اليهِ السياسة انما هو الحرب . الف الشجاعة من البشر فتحط الآداب والفضائل اشد الانحطاط . قدَّر الله ان تبقى الحرب في الدنيا دواء ناجعاً لبني البشر . هذه الاقوال كلها مقتبسة من ترتشكي

فاعتقاد الالمان ان غرض الدول الاسمى يجب ان يكون القوَّة جعلهم يعتقدون ان الحرب يجب ان تكون غايتها العظمى . فيجب عليها ان تقوى لتحفظ كيانها وان تحارب لكي تسلم من المرض فاذا لم تحارب قوي افرادها على مجموعها وزالت الشجاعة والشهامة منها ولذلك قال برنهاردي ان الاحتفاظ بالسلم لم يكن قط ولا يكون ابداً غرض رجال السياسة . فالحرب هي الدواء الناجع وهي معلِّم الشجاعة والشهامة هي الناموس الطبيعي المحتوم هي القوة التي تنشر التعليم والتهذيب هي ناموس الانسانية . والحرب الحاضرة مجومية ودفاعية . والاولى ان يقال انها هجومية لان امَّة نامية مثل امة الالمان يجب عليها ان تبقي ابناءها في حضنها ولا تدعهم يهاجرون الى بلاد اخرى وذلك يقضي عليها ان تمتلك المستعمرات ولكن المستعمرات استولت عليها دول اخرى فلا بدَّ من انتزاعها منها بالحرب

وطالما نادى ترتشكي قائلاً المستعمرات المستعمرات قوُّوا الاساطيل حتى تمتلك بها مستعمرات واسعة . ووجَّه الانظار الى انكلترا قائلاً انها هي الدولة التي تقف في طريق المانيا وتمنعها من التبسُّط في الارض على ان المانيا مضطرة ان تجد متسعاً للذين يزيدون من شعبها لكي ينتشر بواسطتهم الرقي الالماني او تتلاشى . وزد على ذلك ان انكلترا دولة مريضة وهي صورة وهمية وخداع

هذه الفلسفة كلها وثنيَّة بربرية مموهة بطلاء ادبي تجعل الحق للقوة . قال برنهاردي في كلامهِ على ان الشعب الناهي المتزايد يحقُّ لهُ ان يفتح البلدان ان القوة في هذه الحال هي الحق الاسمى واذا اختلف شعبان في ما هو الحق فليحتكما الى السيف وهو اعدل حكم . واستغرب دعوى القائلين انهُ يحق للامة الضعيفة ان تعيش كما يحق للامة القوية

وقد كان ترتشكي من البروتستانت المتدينين وحاول التوفيق بين تعاليمه والمعتقدات الدينية ولكنهُ لم يفلح وتعاليمهُ مزيج من آراء نتشه[٤] ومكياڤلي فقد ارتأى مكياڤلي « ان الدولة تضطر احتفاظاً بنفسها ان تعمل ضد الايمان والمحبة والرحمة والديانة وتبادر الى الحرب اذا حان وقتها » وحينئذٍ يزول عنها الطلاء الادبي الذي اطلّت به ، وقد تدخل ميدان القتال متدرعة بالقوة والعقل فيزول العقل وتبقى القوة وحدها كما قال ممسن[٥] فصدق قولهُ على امتهِ في شهر اغسطس الماضي كما تشهد خرائب لوڤان ودخانها المتصرد في السماء

اردنا ان نشرح هذه الفلسفة لا لانها فلسفة استاذ مثل ترتشكي فقط بل لانها ايضاً فلسفة قائد مثل برنهاردي وفلسفة الحكومة البروسيانية كلها . ألا ترى ان وزير الامبراطورية الالمانية اعتمد عليها حينما قال انهُ يجب على المانيا ان تحفر طريقها في قلب البلجيك . والانصاف يوجب علينا أن نقول ان هذه الفلسفة ليست فلسفة المانيا كلها بل فلسفة بروسيا وحدها ولو قال ترتشكي ان المانيا هي بروسيا وقد اتسعت . ولا ننسى ان بروسيا اصيبت ببليتين الاولى ضيق بقعتها فانها واقعة في وسط اوربا و يتعذّر عليها التوسع والثانية ان ملوكها من عهد المنتخب الكبير او فردرك الكبير[٦] وثقوا الى الفوز على غيرهم في الحروب . فضيق العطن جعلها تشعر دائماً انها تكاد تختنق فتجاهد وتصارع كما يفعل من خاف الاختناق وهذا الشعور جعل فردرك الكبير يغزو سليسيا في زمن السلم رغماً عن عهود ابيهِ و يشير باقتسام بولونيا . ولا تشاركها انكلترا في هذا الشعور لانها في جزيرة لا يزحمها فيها مزاحم ولا تشعر بهِ روسيا ولذلك ميل على قيصرها ان يحسن ظنهُ بغيرهِ و يحترم المعاهدات الدولية . وسهل على روسيا وانكلترا ان تتفقا على نصرة مملكتين صغيرتين واحدة في الشرق (السرب) وواحدة في الغرب (البلجيك)

ولكن مهما كان عذر بروسيا فانهُ لا يمنعنا من محاربتها لاننا نحاربها لغرض من اشرف الاغراض التي يحارب لها البشر . وهذا الغرض هو قانون اوربا العمومي الترس الذي يحمي كل الشعوب كبارها وصغارها ولاسيما الصغار . فاذا قالت المانيا ان دولتها فوق كل قانون وان كل الوسائل اللازمة لحفظ كيانها محلّلة لها على حدّ سوى ناقضناها وقلنا لها اننا نعتمد على الاجتماع الاوربي العام على مجمع الامم الاوربية الشامل لدولها — على قانون اوربا العمومي الذي يوجب على كل دولة ان تحترم عهودها وتحافظ عليها ولا نسلم ابداً بقول من يقول ان

(٤) فيلسوف المانيا آخر وستورد ترجمة في هذا الجزء (٥) هو المؤرخ الالماني المشهور
(٦) المنتخب الكبير هو فردرك وليم (١٦٢٠ — ١٦٨٨) وفردرك الكبير ملك بروسيا (١٧١٢ — ١٧٨٦)

الدول في معترك صراع في علاقاتها بعضها مع بعض كالمصارعين الاقدمين · وغرضنا الاول تأييد سلطة القانون

نحن محقون في دعوانا كما يُنتظَر من اناس تغلبوا على مصاعبهم الداخلية ولم يأتوا امراً ادّ. فالطاعة للقوانين تجري في عروقنا مع دمنا · وما هي اول مرة حاربنا فيها انتصاراً للحق والقانون · لما اشتبكت انكلترا في الحرب مع فرنسا في زمن الثورة الفرنسوية سنة ١٧٩٣ كان الحق في جانبنا فحاربنا لاجل قانون اوربا العام كما قرّ عليه قرار الدول الاوربية حينما عقد صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨ · ولم ندخل في حرب سنة ١٨٧٠ لانهُ لم يعتدَ على قانون اوربا حينئذٍ بخرق حياد البلجيك لان قبل فرنسا ولا من قبل المانيا ولو خرقتاهُ لحاربناهما · في ذلك الحين نشرت جريدة بنش الهزيلة صورة رمزية تمثل انكلترا وقد تقلّدت سلاحها والبلجيك واقفة امامها يرحمها وترحمها وانكلترا تقول لها «ثقي بي عسى ان لا اساعدكِ ولكنني ان فعلت — » · والآن قد فعلت المانيا ما تجنبتهُ حينئذٍ فكيف تقف انكلترا مكتوفة اليدين والغيرة على القانون من التقاليد الممتزجة بدم الانجلوسكسون في انكلترا وفي اميركا — التقاليد التي هي اساس الحياة الاجتماعية للشعب الانجلوسكسوني في العالم كلهِ · لقد حاربت اميركا انكلترا في غابر الزمن وفازت عليها وكانت حربها لها مبنية على اساس القانون · وذلك الاساس الراسخ في نفوس الاميركيين كما هو راسخ في نفوس البريطانيين هو الرابطة بين قلوب هاتين الامتين في معترك الامم

قد يعتقد الالمان ان دفاعنا عن القانون هو نوع من الرياء الذي يحسبون انهُ ملءُ صدورنا · ويقولون ان غرضنا انما هو ان نطعن المانيا طعنة قاضية لانها اخذت تبارينا باساطيلها بينما هي مشتبكة مع فرنسا وروسيا في حرب فيها حياتها او موتها · واننا متبعون مذهب مكيافلي متظاهرون بالفضيلة لنخفي طمعنا · لا ننكر ان لنا مصلحة في هذه الحرب ولكن ما هي هذه المصلحة · هي الحق · الحق هو المصلحة الكبرى التي نتوخاها · ان الساسة الالمان المتأخرون يقولون ان مصلحتهم هي الحق. اما ساستنا الانكليز المتقدمون فيقولون ان الحق هو مصلحتنا · لا شبهة في اننا نستفيد فائدة كبيرة من دفاعنا عن قوانين الدول العامة ولكن هل يمنعنا ذلك من الدفاع عنها · وكم من دم زكي يسفك في هذا الدفاع

هذا موقف انكلترا · قامت تنتصر للقوانين الدولية العامة وللامم الصغيرة التي تحميها تلك القوانين وباتصارها لها تدافع عن كيانها لان دوس القوانين الدولية يعرّضها للخطر ولفقدان ما احرزتهُ بطول الزمن